الباب الثالثُ

الحياء في رحاب اللغة والأدب والقصة

الفصل الأول : الحياءُ علىٰ متنِ اللغةِ والاصطلاح

الفصل الثاني : الحياءُ علىٰ ألسنةِ الحكماءِ والأدباء

الفصل الثالث : من قصص الحياءِ في التُّراث

الفصل الأول

الحياءُ على متنِ اللغةِ والاصطلاح

في « لسانه » أفردَ ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ حديثاً عنِ الحياءِ ، وقد أخذَ مساحةً واسعةً من كتابهِ استغرقت بضع صفحات ، أفاضَ الحديثَ فيها عن مادة الحياء في لغة العرب ، ومدلولها في كلامهم ، ومما قاله ابنُ منظور :

« الحياء » : التوبةُ والحشمةُ ، وقد حييَ منه حياءً ، واستحيا ، واستحىٰ ، حذفوا الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءَين ؛ والأخيرتان تتعدّيان بحرفٍ ، وبغير حرف .

يقولون : استحيا منك واستحياك ، واستحىٰ منك واستحاك .

قال ابن برّي : شاهدُ الحياءِ بمعنىٰ الاستحياء قول جرير :

لولا الحياءُ لعادني استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ

ـ وروي عن النبي ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ شعبةٌ من الإيمان » . قال بعضهم : كيف جعل الحياءَ ـ وهو غريزة ـ شعبةً من الإيمان وهو اكتساب ؟

ـ والجواب في ذلك : أن المُستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي ، وإنْ لم تكن له تقية ، فصار كالإيمانِ الذي يقطعُ عنها ويحولُ بين المؤمنِ وبينها ؛ قال ابن الأثير : وإنَّما جعلَ الحياءَ بعضَ الإيمان ، لأنَّ الإيمانَ ينقسمُ إلى ائتمار بما أمرَ اللهُ به ، وانتهاءً عما نهىٰ اللهُ عنه ، فإذا حصلَ الانتهاءُ بالحياءِ ، كان بعضَ الإيمان ، ومنه الحديث : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » . المراد أنَّه : إذا لم يستحِ صنعَ ما شاءَ ، لأنَّه لا يكون له حياءٌ يحجزه عن المعاصي والفواحش .

ـ قالَ ابنُ الأثير : وللحديثِ تأويلان :

أحدهما : وهو المشهور ؛ إذا لم تستحِ منَ العيبِ ، ولم تخشَ العار بما تفعله ، فافعل ما تحدّثك به نفسك من أغراضها حسناً كان أو قبيحاً ، ولفظه أمرٌ ، ومعناه توبيخ

وتهديد ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي يردعُ الإنسان عن مواقعة السُّوء هو الحياء ، فإذا انخلعَ منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة ، وتعاطي كل سيئة .

والثاني : أن يُحملَ الأمرُ علىٰ بابه ، يقول : إذا كنت في فعلك آمناً أن تستحي منه ليجزيك فيه على سنن الصواب ، وليسَ منَ الأفعال التي يُستحى منها فاصنعْ ما شئت .

ورجل حيي : ذو حياء ، وامرأة حيية .

واستحيا الرجل ، واستحيت المرأة ، وقوله :

وإنّي لأستحيي أخي أنْ أرىٰ لهُ عليَّ منَ الحقِ الذي لا يرىٰ لِيا

معناه : آنفُ من ذلك .

ـ قال الأزهري : للعربِ في هذا الحرف لغتان :

يقال : استحىٰ الرجل يستحي ، بياء واحدة .

واستحيا فلان يستحيي بياءين .

والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية في قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة : ٢٦] .

قال الأخفش : استحىٰ : بياء واحدة لغة تميم ؛ وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل .

وحييتُ منه : استحييت .

واستحياه ؛ واستحيا منه ، بمعنى منَ الحياء[1] .

ـ وقال الزمخشري عن الحياء : حييتُ منه : أحيا حياءً ، واستحييتهُ ، واستحييتُ منه ، واستحيتُ ، وأنا أستحي منه ، وهو رجلٌ حييٌّ ، وهو أحيا من مخدَّرة ، قالت ليلىٰ ـ الأخيلية ـ :

وأحيا حياءً من فتاةٍ حييةٍ وأشجعَ من ليثٍ بخفَّان خادر[2]

ـ وقال الفيومي : استحييته : بياءين ، إذا تركته حيّاً فلم تقتله ، ليس فيهِ إلا هذه اللغة . وحييَ منه حياءً بالفتح والمد فهو حيي ؛ واستحيا منه وهو الانقباض والانزواء[3] .

ـ وقال أبو البقاء الكفوي في كلياته : الحياء : بالمد ؛

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٢١٧ـ٢١٩) بتصرّف واختصار .
(٢) أساس البلاغة (ص ١٥٠) .
(٣) المصباح المنير (ص ١٦٠) .

الحشمة ، وبالقصر : المطر الخيّر . والحياء أيضاً : انقباض النّفس عن القبيح مخافة اللوم ، وهو الوسط بين الوقاحة التي هي الجرأةُ علىٰ القبائحِ وعدمِ المبالاة بها ، والخجل الذي هو انحصارُ النفسِ عن الفعلِ مطلقاً ، وإذا وُصِفَ به الباري تعالىٰ فالمرادُ به التّرك اللازم للانقباض ، كما أنَّ المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما[1] .

ـ ونترك كتبَ اللغةِ لنعيشَ معاني الحياء في كتب الأخلاق ، قال ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : الحياء : منَ الحياة ، ومنه الحيا للمطر ، لكن هو مقصور . وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء ، وقلةُ الحياء من موتِ القلب والرّوح ، فكلما كان القلبُ أحيى كان الحياءُ أتمّ[2] .

ـ وقال البُستي : الحياء اسم يشتملُ علىٰ مجانبة المكروه منَ الخصال[3] .

---

(١) الكليات (ص ٤٠٤) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٩) .
(٣) روضة العقلاء (ص ٨٧) .

ـ وعكس الحياء : القِحَة : من الوقاحة بالفتح : قلة الحياء ، وقد وقُح وقاحةً وقِحةً فهو وقِحٌ ، وامرأة وقاحُ الوجه .

قال ابن منظور : يقال : رجلٌ وقيح الوجه ووقاحه : صُلْبُه قليل الحياء ، والأنثىٰ وقاحٌ . ويقال : وقِح ووقُح الرجل : إذا صار قليلُ الحياء فهو وقح ووقاح[1] .

ـ وقال النووي في التهذيب : حيي : الحياء ممدود ، وهو خصلةٌ من خصالِ الإيمانِ كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ من الإيمان » ؛ وصحّ عنه ﷺ أنَّه قال : « الحياءُ خيرٌ كلُّه » .

قال الواحدي : قال أهل اللغة : أصل الاستحياء من الحياة ، واستحيا الرجل من قوة الحياةِ فيه لشدة علمه بمواقع العيب ، فالحياءُ من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة .

وقال مجد الدين بن الأثير في باب ما ينقض الوضوء من

---

(١) لسان العرب (٢/ ٦٣٧) .

مسند الشافعي : الحياء تغيرٌ وانكسار يعرض للإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذمّ عليه ، واشتقاقه من الحياة ، فكأنّ الحي جعل متنكسَ القوة منتقصَ الحياة لما يعتريه من الانكسار والتغير ، يُقال : استحييتُ منه ، واستحييته بمعنى ، ويقال : استحيتُ بياء واحدة ، أسقطوا الياء الأولىٰ وألقوا حركتها على الحاء ، والأصل إثبات الياءين وهي لغةُ أهلِ الحجاز ، وحذف الأولى لغة تميم ، والله تعالىٰ أعلم . وقولهم في باب الغُسل في حديث أم سُلَيم الأنصارية رضي الله عنها : « إنَّ اللهَ لا يستحيي من الحق » معناه : لا يستحيي أنْ يبيّن ما هو الحق[1] .

* * *

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات (٣/٧٦) .

الفصل الثاني

الحياءُ على ألسنةِ الحُكماءِ والأدباءِ

حظي أدبُ الحياءِ بمساحاتٍ واسعاتٍ من آفاق المعرفة وآفاق الآداب كما حظي بمساحةٍ كبيرةٍ من بطون الكتب وكلمات الأدباء والحكماء والأعلياء ، وهمسات الشعراء .

ـ ونحنُ مرسلو بعضَ القولِ في هذا الفصلِ لفائدتهِ ، وجامعو فيهِ ما تفرّقَ في المصادرِ ، وما استطعنا حصاده من ألبابِ الألبّاءِ ، وأنفاسِ الأدباءِ الحكماءِ .

ـ ومن روائعِ البدائعِ في الحياء ، ومجالسةِ أهلهِ ليظلَّ الحياءُ حيّاً في النفوسِ ما كانَ يُقال : أحيوا الحياء بمجالسة مَنْ يُستحيا منه[1] .

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٧٨) ، والعقد الفريد (٢/ ٤١٣) .

ـ ووصف أعرابي من الأعراب رجلاً ذا حياء وإغضاء فقال : لا تراهُ الدّهرَ إلا وكأنَّه لا غِنىٰ به عنك ، وإنْ كنتَ إليه أحوجَ ، فإنْ أذنبتَ غفر وكأنَّه المذنبُ ، وإنْ أسأتَ إليهِ أحسنَ وكأنَّه المسيء[1] .

ـ وفي هذا المعنىٰ قالت ليلىٰ الأخيلية تصف رجلاً أشدّ :

فتىً هو أحيا مِنْ فتاةٍ حييةٍ وأشجعُ من ليثٍ بخفّان خادر

ـ وقالت ليلىٰ أيضاً في المعنىٰ ذاته :

ومقدّرٍ عنه القميص تخالُه وسطَ البيوتِ منَ الحياء سقيما
حتىٰ إذا رُفعَ اللواء رأيته تحت اللواءِ علىٰ الخميسِ زعيما

ـ ولابن قيس ما يشبه هذا المعنىٰ في مديحهِ جماعةً بالحياء :

تخالهم للحلمِ صمّاً عن الخنا وخرساً عن الفحشاء عند التهاجر
ومرضىٰ إذا لوقوا حياءً وعفّةً وعند الحفاظِ كالليوثِ الخوادر

---

(١) المصدران السابقان نفسهما .

ـ وقال أبو دهبل الجمحي يمدحُ النبي ﷺ من قصيدة :

نزرُ الكلامِ منَ الحياء تخاله ضمناً وليس بجسمه سقم
عَقِمَ النساءُ فلا يلدنَ شبيهه إنَّ النِّساء بمثله عقم[1]

ـ ويدلي الشعبي ـ رحمه الله ـ دلوه في هذا المضمار ، فمما حُفِظَ عنه من أقوالهِ النفيسة ، وحِكَمه الرّائعة هذا القول الجميل عن الحياء : تعايشَ الناسُ زماناً بالدِّين والتقوىٰ ، ثُمَّ رفعَ ذلك ، فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رُفع ذلك ، فما يتعايش النّاسُ إلا بالرغبةِ والرهبةِ ، وأظنّه سيجيءُ ما هو أشدُّ من هذا[2] .

ـ وقال بعضهم في محاسنِ الحياء : الحياءُ يزيدُ في النُّبل[3] .

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٧٨ و ٢٧٩) .
(٢) عيون الأخبار (١/ ٢٧٩) ، والعقد الفريد (٢/ ٤١٤) .
(٣) العقد الفريد (٢/ ٤١٤) .

ـ ومن ثمرات ألباب ألبّاء الشّعراء في امتداحِ الحياء ، ما قاله أحدُ فضلائهم :

ورجِّ الفتىٰ ما دامَ حياً فإنَّه إلىٰ خيرِ حالات المنيبِ يصيرُ

ـ واعتبرَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ الحياءَ وبعضَ مكارمِ الأخلاق من الإيمان فقال : الحياء ، والحلم ، والصمت من الإيمان[1] .

ـ والحياءُ سمةُ الكرامِ العظامِ ، وهو شيمةُ كلِّ كريم ، ولله درُّ مَنْ قال :

ما إنْ دعاني الهوىٰ لفاحشةٍ لأنّها في الحياءِ والكرمِ
ولا إلىٰ محرم صدوق يرىٰ ولا مشتْ بي لريبة قدمي

ـ وقال الأصمعي : سمعتُ أعرابياً يقول : مَنْ كساهُ الحياءُ ثوبَهُ ، علىٰ الناس عيبه .

ـ وامتدحَ أميةُ بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان بالحياء بقصيدة مشهورة منها :

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٤) .

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنَّ شيمتكَ الحياءُ
وعلمُك بالأمورِ وأنتَ حرٌّ لك الحسبُ المؤثّل والثّناءُ

ـ وفي أقوالِ الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم زهراً يعبق بأرقّ أنسام العبير ، التي يتضوعُ من بينِ أردانها مسك الحياء ، ومما يجري مجرىٰ الحكمةِ ، منْ أقوالهم رضي الله عنهم ما أُثِرَ عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ في الحياء وذهابه ، وأضرار ذهابه منَ العبد ، قال : إنَّ اللهَ إذا أرادَ بعبدٍ هلاكاً ، نزعَ منه الحياء ، فإذا نزعَ منه الحياء ، لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، فإذا كان مقيتاً ممقتاً ، نزع منه الأمانة ، فلم تلقه إلا فظاً غليظاً ، فإذا كانَ فظاً غليظاً ، نزع ربقَ الإيمان من عنقه ، فإذا نزع ربقَ الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطاناً لعيناً ملعناً[1] .

ـ ولنستمعْ إلىٰ صفة الحيي والحياءِ عند الفاروقِ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ حيث التقىٰ سرُّ الحياء فيقول : مَن استحيا

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٤) .

اختفىٰ ، ومن اختفىٰ اتقىٰ ، ومَن اتقىٰ وُقي[1] .

ـ وقال الجراح بنُ عبدِ الله الحكمي ـ وكان فارس أهل الشام ـ : تركتُ الذنوبَ حياءً أربعين سنة ، ثم أدركني الورع[2] .

ـ قال بعضُ الفضلاء محققاً هذا المعنىٰ : رأيتُ المعاصي نذالة ، فتركتُها مروءة ، فاستحالتْ ديانة .

ـ وفي دعوةٍ حلوةٍ إلىٰ ورعِ الحياء ، وحياء الورع يقولُ الفضيلُ بن عياض : تغلقُ بابك ، وترخي سترك ، وتستحي من النّاس ، ولا تستحي منَ القرآنِ الذي في صدرك ، ولا تستحيي من الجليلِ الذي لا يخفىٰ عليه خافية .

ـ ونصحَ بعضُ السلفِ ابنه ، وأبانَ له فائدةَ الحياءِ فقال : يا بني ، إذا دعتك نفسك إلىٰ كبيرة ، فارمِ ببصركَ إلىٰ السماء ، واستحِ ممن فيها ، فإنْ لم تفعلْ فارمِ ببصركَ إلىٰ

---

(١) جامعُ العلوم والحكم (١/ ٥٠١) .
(٢) سيرُ أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠) .

الأرض ، واستحِ ممن فيها ، فإن كنتَ لا ممنْ في السماء تخافُ ، ولا ممن في الأرضِ تستحي ، فاعدد نفسك في عدادِ البهائم[1] .

ـ ومن كلماتِ أمنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الحياءِ ومكارمِ الأخلاقِ قولها وقد عدّتِ الحياءَ رأسَ المكارم فقالت : مكارم الأخلاقِ عشرة : صدقُ الحديث ، وصدقُ اللسان ، وأداءُ الأمانةِ ، وصلةُ الرّحم ، والمكافأةُ بالصّنيع ، وبذلُ المعروفِ ، وحفظُ الذمام للجار ، وحفظ الذمام للصاحب ، وقِرىٰ الضّيف ، ورأسُهن الحياء[2] .

ـ ويصفُ لنا أبو موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حياءَهُ منَ اللهِ فيقول : إنّي لأدخلُ البيتَ المظلمَ أغتسلُ فيه منَ الجنابة ، فأحني فيه صلبي حياءً من ربي[3] .

---

(١) المستطرف (١/ ١٢٧) .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق .

ـ وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء .

ـ وقال غيره : الحياءُ دليلُ الخير كله .

ـ ومن كلامِ بعضِ الحكماء : عمارةُ القلب بالهيبة والحياء ، فإذا ذهبا من القلبِ لم يبقَ فيه خير .

ـ وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة في القلب .

ـ وقال السري : إنَّ الحياءَ والأنسَ يطرقانِ القلبَ ، فإن وجدا فيهِ الزهدَ والورعَ ، وإلا رحلا .

ـ وقال الفُضيلُ بن عياض : خمسٌ من علاماتِ الشقوة : القسوةُ في القلبِ ، وجمودُ العينِ ، وقلةُ الحياء ، والرغبةُ في الدُّنيا ، وطولُ الأمل .

ـ وقال بعضُ الفضلاء الأدباء : خَفِ اللهِ علىٰ قدر قدرته عليك ، واستحي منه علىٰ قدر قربه منك .

ـ ومن الأقوالِ الرائعةِ في الحياء قولهم : مَنْ جمعَ بينَ

الحياء والسّخاء ، فقد أجادَ الخلةَ إزارها ورداءها[1] .

ـ وسأل يحيىٰ بن خالد رجلاً عن ابنه فقال : تركتهُ وماءُ الحياءِ يتحدّر من أساريرِ وجهه[2] .

ـ وقال كعب : استحيوا منَ اللهِ في سرائركم ، كما تستحيون منَ الناس في علانيتكم .

ـ وقيل : مَنْ يستحي منَ النّاس ، ولا يستحي من نفسه ، فلا قَدْر لنفسه عنده .

ـ وقال الشاعر :

إذا كانَ ربي عالماً بسريرتي فما النّاس في عيني بأعظمَ من ربي

ـ وفي المثل : خلاؤك أقنىٰ لحيائِك ؛ والمعنىٰ : إذا خلوتَ في منزلكَ ، وتركتَ غشيانَ الناسِ فقد لزمتَ الحياء[3] .

---

(١) انظر : محاضرات الأدباء (١/ ٢٨٤) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) جمهرة الأمثال (١/ ٣٤٢) .

الفصل الثالث

من قصص الحياءِ في التراثِ

فيما يلي قصة أوردها أبو الفرج المعافىٰ بن زكريا النهرواني في كتابهِ المشهور الجميل « الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي » وهذه القصة مدارها حول الحياء ، ولكنّ عنصرَ المفاجأةِ غريبٌ فيها ؛ وسأذكرُ القصةَ كما وردتْ تماماً دونَ تعليق ، لأنَّ في النَّفس أشياءَ من أمثالِ هذهِ القصص ، ـ ولكنّي أوردتُها لطرافتها ـ وهذه القصة بعنوان : يستحيي من النّهر .

ـ ذكر النهرواني بسندهِ عنْ ستة رجالٍ ، ثم عن كعب الأحبار قال :

ـ إنَّ رجلاً من بني إسرائيلَ أتىٰ فاحشةً ، فدخلَ نهراً يغتسلُ فيه ، فناداهُ الماءُ : يا فلان ألا تستحيي ، ألَمْ تتبْ من هذا الذنب ؛ فقلتَ إنك لا تعودَ فيه ؟!!

فخرجَ منَ الماءِ فزِعاً وهو يقول : لا أعصي الله .

ـ فأتىٰ جبلاً فيه اثنا عشر رجلاً يعبدون اللهَ ، فلم يزلْ معهم حتىٰ تخطوا موضعهم ، فنزلوا يطلبونَ الكلأ ، فمرّوا علىٰ ذلك النّهر ، فقال الرجل : أما أنا فلستُ بذاهب معكم! قالوا له : لمَ ؟

قال : لأنَّ ثمَّ مَنْ قد اطّلع منّي علىٰ خطيئة ، فأنا أستحيي منه أن يراني ، فتركوه ومضوا ، فناداهمُ النّهرُ : يا أيُّها العبّاد ؛ ما فعلَ صاحبُكم ؟!

قالوا : زعمَ لنا أنَّ ها هنا مَنْ قد اطّلع منه علىٰ خطيئة ، فهو يستحيي منه أنْ يراه .

قال : يا سبحان الله! إنَّ بعضَكم ليغضبُ علىٰ ولده ، أو

علىٰ بعضِ قراباته ، فإذا تابَ ورجعَ إلىٰ ما يحبُّ أحبَّه ؛ وإنَّ صاحبَكم قد تابَ ، ورجعَ إلىٰ ما أحبُّ فأنا أحبُّه ؛ فأتوه فأخبِروه ، واعبدوا اللهَ علىٰ شاطئي .

ـ فأخبروه ، فجاء معهم ، فأقاموا يعبدونَ الله زماناً ، ثُمَّ إنَّ صاحبَ الفاحشةِ توفي ، فناداهم النّهر : يا أيّها العبّاد والعبيد الزّهاد اغسلوه مِنْ مائي ، وادفنوه علىٰ شاطئي حتىٰ يُبعثَ يوم القيامةِ من قربي ، ففعلوا به ذلك ، وقالوا : نبيتُ ليلتنا هذه علىٰ قبره نبكي ، فإذا أصبحنا سِرْنا .

ـ فباتوا علىٰ قبره يبكون ، فلما جاءَ وجهُ السَّحَرِ ، غشيهم النُّعاسُ ، فأصبحوا وقد أنبتَ اللهُ علىٰ قبره اثنتي عشرة سَرْوة ، فكانَ أوّلَ سَرْوٍ أنبته اللهُ علىٰ وجه الأرض ، فقالوا : ما أنبت هذا الشّجرُ في هذا المكان إلا وقد أحبَّ عبادتنا فيه .

ـ فأقاموا يعبدونَ اللهَ علىٰ قبره ، كلّما ماتَ منهم رجلٌ دفنوه إلىٰ جانبه ، حتّىٰ ماتوا بأجمعهم .

ـ قال كعب : فكانتْ بنو إسرائيل يحجّون إلىٰ قبورهم!!!![1]

* * *

(١) انظر الجليس الصالح الكافي (٢/ ٣٦١ و ٣٦٢) ، تحقيق د . محمد مرسي الخولي ، عالم الكتب ، بيروت ط ١٩٩٣ ، وسأترك محاكمة هذه القصة للقارىء ، مع تذكيري إياه بأنها من الخرافات والأساطير!!! ولكني أوردتها للعبرة .